الفصل الرابع

سنة يونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فى التوبة

نظرة على قصة يونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ

من أراد أن يدخل فى هذه المدرسة، ويتعلم منها دروسًا فى التوبة من سيرة نبى من أنبياء الله، عليه أن يعرف شيئًا عن صاحبها؛ ليزداد تقديره لها، ويتسع صدره لقبول وتفهم المنهج، والصبر عليه.

فهذا يونس بن متى، الذى قال عنه سيدنا محمد ﷺ، **«لا ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»** [رواه مسلم][١].

بعث الله تعالى نبيه يونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إلى أهل (نينوى) من أرض الموصل بالعراق، فدعاهم إلى الله - عز وجل - فكذبوه وتمردوا عليه، فلما طال ذلك عليه من أمرهم، خرج من بين أظهرهم، ولما تحققوا نزول العذاب بهم، قذف الله فى قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم مع نبيهم، وكشف الله العظيم - بحوله وقوته ورأفته ورحمته - عنهم العذاب.

قال تعالى فى سورة يونس: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨﴾ [يونس].

وفى هذه الأوقات كان لسيدنا يونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ قصة وعبرة للمؤمنين، يقصها علينا القرآن الكريم فى سورة الأنبياء: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء].

فالآيتان فيهما انفعال صاحب الحوت، وهو سيدنا يونس، الذى ترك قومه غضبان، وظن أن الله لن يضيق عليه، ولكنه عندما وقع فى الغم، أدرك أنه كان من الظالمين، فدعا الله بدعاء

(١) مسلم فى الفضائل (٢٣٧٧/ ١٦٧).

لم يدع به قبله إنس ولا جان، «**فأقبلت هذه الدعوات تحت العرش، فقالت الملائكة يا رب: صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة، فقال: أما تعرفون ذاك؟**

قالوا: لا يا رب، ومن هو؟ قال: عبدى يونس، قالوا: عبدك يونس، الذى لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة؟! قالوا: يا ربنا أولا ترحم ما كان يصنعه فى الرخاء، فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى، فأمر الحوت فطرحه فى العراء» [عن أنس بن مالك، ورواه ابن جرير].

يقول الله تعالى فى سورة الصافات: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾[الصافات].

ويقص علينا القرآن الكريم كيف التقمه الحوت، وظروف ذلك، وكيف أنقذه الله تعالى فى سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾[الصافات].

فقد ذهب يونس غضبان أسفًا، وركب فى السفينة، ووقع على يونس القرعة فألقى فى البحر؛ وذلك تخفيفًا لحمل السفينة، ولضمان نجاتها بعد أن تكررت القرعة، وبدلًا من أن تحمله السفينة، حمله بطن الحوت، فألهمه الله التسبيح والدعاء فى موضع لم يعبده أحد فى مثله، فاستغل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الكرب الذى وقع فيه، والظلمات والألم والخوف فى التوجه إلى الله بالدعاء، بعدما أدرك أن ذلك كان ظلمًا من نفسه وقع عليه، واستغل غربة المكان، وعدم إدراكه للزمان، فهو فى ظلام، ليلًا ونهارًا، فأنعم الله عليه، بأن أمر الحوت فقذفه فى الساحل وهو سقيم مريض، وأنعم عليه بالدواء والغذاء، إلى أن شفى وأذهب عنه كربه العظيم.

الآيات التى سننطلق منها لاتباع سنة يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فى التوبة:

- قال تعالى فى سورة الأنبياء: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾[الأنبياء:٨٧]؛ لمعرفة أن الغضب من أسباب الوقوع فى الذنب.

- قال تعالى فى سورة القلم: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾[القلم]؛ لمعرفة أن عدم الصبر من أسباب الوقوع فى الذنب.

- قال تعالى فى سورة الأنبياء: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾[الأنبياء]؛ لمعرفة فائدة الدعاء لله - عز وجل - فى أوقات الأزمات فى تقبل التوبة.

منهج التوبة

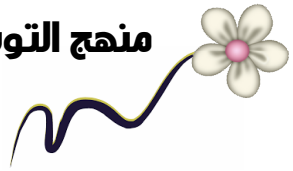

الغضب كسبب من أسباب الوقوع فى الذنب:

يقول الله تعالى فى سورة الأنبياء: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الأنبياء].

غضب سيدنا يونس من قومه، بعدما كفروا برسالته جميعهم، فتركهم لقوم آخرين؛ عسى أن يؤمنوا به، بدون إذن من ربه، فكانت له قصة وقوعه فى البحر، والتقام الحوت له، فعاش فى ثلاث ظلمات: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، وحينئذ أدرك أنه كان من الظالمين، فتذكر ربه ودعاه فى الظلمات؛ فاستجاب له الله، ونجاه من الغم.

أين نحن من هذه الذنوب وهذا الغضب؟! هل أحست الأخت التى تركت أخوات لها، وتوقفت عن مواصلة العمل معهن، وطلبت غيرهن غضبًا منها لعدم طاعتهن لها، بأنها قد كانت من الظالمين؟ هل أحست الأم التى غضبت من أولادها لعصيانهم لها، فتركتهم مع أبيهم لتبحث عن مكان آخر وأناس آخرين، أنها قد كانت من الظالمين؟ هل أحست المدرسة فى الفصل أنها كانت من الظالمين عندما تركت الفصل لعدم هدوئه، أو التزامه دون أداء واجبها واستكماله؟ هل أحست الأخت الكبيرة، أو المسئولة فى المنزل، بأنها قد ظلمت نفسها عندما تركت أخواتها يفعلن ما يشاءون، ولم تقم على رعايتهم كما كان موكولًا لها؟ عندما تجد الإجابة لها، لم يحس أحد منهم بالظلم، سنتأكد أنهم جميعًا لم يدخلوا مدرسة يونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فى التوبة، وسندرك مدى أهمية هذا المنهج النبوى فى إصلاح أحوالنا، ووصولنا إلى بر التوبة فائزين ناجين.

وربما تقولين: كيف لا أغضب، أليس الغضب فينا ومن صفاتنا؟! وإلا لم غضب الأنبياء ومنهم محمد ﷺ، فعن أبى هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«اللّٰهم أنا بشر**

أغضب كما يغضب البشر، فأيما مسلم سببته، أو لعنته، أو ضربته، فاجعلها منى صلاة عليه، وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة» [أخرجه مسلم][1].

هكذا كان اعتراف الأنبياء بصفاتهم البشرية، التى لم ينفكوا عنها، ولم يتجردوا منها، وإنما جعلوها لله شكرًا له وقربة إليه.

وإذا كان انفعال الغضب طبيعيًّا فى النفس البشرية، فكيف تستطيعين كأخت مسلمة، أن تستغلى هذا الانفعال فى صالحك، وألا يكون عاقبته الإثم، أو البغى على النفس، أو الناس؟

إذا حاولت الأخت المسلمة أن تجعل غضبها هذا لله سبحانه وتعالى، فتغضب لغضب الله، وتغضب لانتهاك حرمات الله، والتقصير فى أداء فروضه وواجباته، سواء أكان ذلك من نفسها أو من الآخرين - بهذا يكون هذا الانفعال ضروريًّا لكل مسلم ومسلمة؛ لكى يصحح عبادته وإسلامه وتستقيم أموره.

وهذه أمثلة يمكن أن تقرب إليك هذا المفهوم:

- أن تغضبى لعدم أداء فريضة صلاة الفجر من جانب أفراد أسرتك، وأن تحسى بالألم النفسى لذلك؛ مما يدفعك إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.
- أن تغضبى لعدم التزام أختك بالحجاب الذى أمرها الله به.
- أن تغضبى للتقصير فى بر الوالدين.
- أن تغضبى لعدم أداء فريضة الصلاة فى أماكن العمل، أو الدراسة وتأخيرها، وربما نسيانها.
- أن تغضبى لعدم طاعة الزوجة لزوجها، وعدم حفظها لماله ولنفسها فى غيابه.

وهذه الأمثلة ربما تفتح أمامك أبوابًا أخرى للغضب المشروع والمحمود، ولكن يجب أن تختارى طريقك فى الغضب، أو فى التعبير عنه، فهل سيكون بالحكمة والموعظة الحسنة، أم سيأتى الغضب بما لا تحمد عقباه؟

لقد أدى انفعال الغضب الذى كانت نيته لله إلى إحجام العديد من الناس عن الالتزام بالدين، أو اختياره كأساس للحياة؛ ولذلك جاء كظم الغيظ من الفضائل التى يتحلى بها المسلم، إلى أن تستطيعى إحسان التفكير والتعقل، واختيار أفضل السبل للعلاج وللإصلاح،

---

(١) مسلم فى الفضائل (٢٣٧٧/١٦٧).

بعد الوصول إلى حالة الهدوء النفسى، بعد الثورة النفسية والعقلية التى يحدثها الغضب فى صاحبه.

وتذكرى أن غضب سيدنا يونس كان غضبًا لله، ولكنه اختار طريقًا لم يأمره الله به، فترك قومه باحثًا عن أناس آخرين من الممكن أن يقبلوا دعوته، ويؤمنوا بالله الواحد القهار. فمدرسة يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فى التوبة، تعلمنا لمن نغضب، وكيف نستغل هذا الانفعال ونحسن الوقت فى الاستجابة له، ونحسن كيفية الاستجابة، وهى أمور تحتاج إلى تدريب ورياضة للنفس، ومحاسبة دائمة لها؛ لكى نقوم انفعالاتها فيما يحب الله ويرضى، فنسأل لماذا غضبت؟ لنفسى أم لله؟ وإذا كان لله هل تم كيفما يرضاه؟

ولكن ماذا تفعلين عندما تجدين نفسك وقعت فى انفعال الغضب، ووجدتى آثاره على قلبك فى شكل حقد أو حسد أو حزن لسرور الغير، أو فرح لحزنهم، أو وجدت آثاره على لسانك بالشتم أو التلفظ بالفحش من القول، أو إذا وجدت آثار الغضب على جوارحك، فأخذتى بالضرب أو الاعتداء على الغير بقسوة ودون رحمة؟

– فلتفكرى فى فضل كظم الغيظ الذى فاتك، وفوت عليك حب الله، والوصول إلى درجة الإحسان التى لا ينالها إلا من كظم غيظه وعفا عن الناس: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران]، وتفكرى أن الشديد هو الذى يملك نفسه عند الغضب، وخاصة على من قدر عليهم.

– أن تتذكرى قدرة الله عليك، وأنه لا يحب الظالمين.

– أن تحذرى نفسك من عاقبة العداوة، والانتقام، والخصومة، والكراهية، وقطع الرحم والخسارة فى النفس والمال.

– أن تتفكرى فى قبح صورتك عند الغضب، كيف تتقلص عضلات الوجه ويحمر لونه، ويرتفع الصوت ويغلظ، وتجحظ العينان، ويكون شكل الإنسان لا تقبله نفسه قبل الآخرين.

– أن تعلمى أن غضبك كان سببه هو تعجبك من قدر الله، وكيف يسير الشىء أو الناس على غير ما تريدين، فالفتاة التى ترغب فى الخروج يوميًّا من البيت؛ للنزهة وضياع الوقت، وتقصر فى واجباتها، فتغضب عندما يمنعها والدها من الخروج أو الإسراف فيه، أو الخروج

فى أوقات معينة لا يأمن فيها عليها – فهى تسأل نفسها لماذا جعل الله طاعة الوالدين، وتنظر إليها كأنها من معوقات حرية الفرد، التى تتمنى أن تحصل عليها دون قوانين أو رقابة أو التزامات.

فهذا عن التفكر والعلم، ولكن ماذا عن القول والعمل؟

– أن تقولى عند الغضب: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

–أن تتوجهى إلى الله بالدعاء أن يذهب غيظ قلبك، ويبعد عنك الفتن؛ فهذا دعاء علمه الرسول ﷺ لعائشة زوجته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: **«اللّٰهم رب النبى محمد، اغفر لى ذنبى، وأذهب غيظ قلبى، وأجرنى من مضلات الفتن»**(١).

– أن تذهبى وتتوضئى وضوءك للصلاة؛ فقد قال ﷺ: **«إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء»**(٢).

– أن تمتنعى عن الكلام نهائيًّا بالسكوت، وعدم النظر إلى ما يغضبك، فقد قال الرسول محمد ﷺ: **«إذا غضبت فاسكت»** [أخرجه أحمد والطبرانى](٣).

– تغيير الوضع بتغيير حركة الجسم من الحركة للسكون، أو من السكون للحركة، وقد قال رسول الله محمد ﷺ: **«إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع»**(٤).

– وضع الخد على الأرض، وهو أمر عن الرسول محمد ﷺ لنا. قال الرسول محمد ﷺ: **«ألا إن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم، ألا ترون إلى حمرة فى عينيه، وانتفاخ أوداجه، فمن وجد من ذلك شيئًا فليلصق خده بالأرض»** [حديث أبى سعيد، أخرجه الترمذى](٥).

ومن هذه النقاط يكون علينا العمل فى ثلاثة اتجاهات؛ **الاتجاه الأول:** هو النفس، بسرعة إدراك حالتها وتذكر الله، **والاتجاه الثانى:** هو التوجه إلى الله بالدعاء والاستعاذة به من

---

(١) أحمد (٦/٣٠٢).

(٢) أبو داود فى الأدب (٤٧٨٤).

(٣) أحمد (١/٢٣٩)، وقال الشيخ أحمد شاكر (٢١٣٦): «إسناده صحيح»، والطبرانى فى الكبير (١١/٣٣) (١٠٩٥١)، وقال الهيثمى فى المجمع (٨/٧٣): «رجال أحمد ثقات».

(٤) أبو داود فى الأدب (٤٧٨٢).

(٥) الترمذى فى الفتن (٢١٩١)، وقال: «حسن صحيح».

الشيطان الرجيم، **والاتجاه الثالث:** هو الشيء أو الشخص الذى غضبتِ بسببه، بالابتعاد عنه وعدم النظر إليه، أو مخاطبته، فلا يصر على الاستمرار فى حالة الغضب التى وقع فيها، يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾[آل عمران].

عدم الصبر كسبب من أسباب الوقوع فى الذنب:

قال تعالى فى سورة القلم: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ [القلم]. الأمر لسيدنا محمد ﷺ متمم الأخلاق للإنسانية جميعًا، والنهى له فى عدم اتباعه طريق يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فى عدم الصبر على قومه؛ ليكون خلقه القرآن، ويكون قرآنًا يمشى على الأرض. فقد أنزل الله تعالى الآيات على سيدنا محمد ﷺ، تخبره بقصص الأنبياء؛ ليكون له ولمن تبعه عبرة وموعظة، ينتفع بها المؤمنون. فقد استبطأ سيدنا يونس إيمان قومه، وظن أن الله لن يضيق عليه بالبقاء بين هؤلاء القوم المعاندين، وقد كتب الله لهم جميعًا الإيمان بعد أن تركهم؛ ليكونوا آية للمسلمين جميعًا، وهداية للمؤمنين.

فمن منا لا يحتاج إلى الصبر فى حياته؟! وقد خلق الإنسان هلوعًا، إذا مسه الشر جزوعًا، يقول الله تعالى فى سورة آل عمران: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران].

فهو أمر للمؤمنين جميعًا بالصبر واحتماله؛ فهو فضيلة تسبق فضائل أخرى؛ كالشجاعة والرباط والقتال والثبات، ويصف الله تعالى الصابرين بالصدق والتقوى فى سورة البقرة: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[البقـــــرة]. والصدق هنا هو الصدق مع الله سبحانه وتعالى ومع النفس، فلا يعنى الصدق سرعة التعبير عما يدور فى ذهن أحدنا، أو فى نفسه وقلبه، فتقولين: إننى صادقة؛ فهنا تقع كثير من الأخوات فى الذنب بسبب هذا الصدق غير المطلوب، وقد كانت بحاجة إلى كظم الغيظ، أو الصبر والصدق مع الله تعالى؛ لإصلاح النفس وإصلاح الغير. وقد قرن الله تعالى الصلاة والصبر – كوسيلتين – يستعين بهما المؤمن فى طاعة الله، وعلى ما يصيب المؤمن من المصائب، يقول الله تعالى فى سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقـــرة]، وقد كان لنا فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة؛ فقد صبر ﷺ على أذى الكفار وإهانتهم، إلى أن أتم الله الدين عليه وعلى المسلمين.

وعلينا أن ندرك أن الصبر ليس سلبيًّا، فكل بلاء تستطيعين أن تدفعيه عنك، لا تؤمرى بالصبر عليه؛ إنما عليك أن تقومى بدفعه بما أعطاك الله من قوة وعلم ودين، وكذلك الصبر ليس عملًا سلبيًّا، يتطلب من الأخت السكون، أو أن تتحمل آلامًا ومشاق على الدوام، ولكنه فترة وفضيلة، يستخدمها المسلم لتقوية نفسه، ونيل حب الله له، وهو اختبار لمدى قدرة الأخت على تحمل الصعاب، أو المشكلات، فهو قدرة فى النفس تمكنها من الاحتمال بغير تبرم، يؤدى إلى ضياع الحقوق أو ظلم النفس أو الغير.

وعندما ننظر إلى أعمالنا وما أصابنا من ذنوب أثناء اليوم، سندرك أن كثيرًا منها كان يمكن ألا يتم إذا استعنا بالصبر والصلاة.

وإليك هذه الأمثلة لتقريب الفكرة إلى الذهن:

- إذا صبرنا على إتمام العمل كما يحب الله ويرضى، وراجعناه وقيمناه وحاسبنا أنفسنا، هل ستكون النتيجة الخطأ أو النقصان؟ ثم الشعور بالذنب تجاه النفس المقصرة.

- إذا صبرنا على أداء الصلاة والمحافظة عليها، وإتمامها كما أمرنا الله تعالى، وصبرنا على أهلنا فى الأمر بها: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[طـه:١٣٢]، هل سيكون أحد فى المنزل لا يؤديها، ثم نقع فى الذنب إذا أهملنا؛ لأن «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**»(١) .. حتى الخادم، فقد جعله الإسلام مسئولًا فى عمله.

- إذا صبرت الأخوات الصغيرات على النظام والنظافة فى المكان اللاتى يجلسن فيه، كما تصبر على مظهرها وجمالها، هل سيحس من حولها بأى تقصير فى أداء واجباتهن؟

- إذا صبرت الأخوات على العلم هل ينتظرن إلا التفوق بإذن الله؟

- إذا صبرت الزوجة على زوجها، هل تنتظر غير الحب والتقدير والعرفان بالجميل من جانب زوجها؟، وإذا لم تنل ذلك هل تنتظر غير توبة الله عليها ودخول الجنة؟

- إذا صبرت الأخت على دعوة أخواتها إلى الله وطاعته فيما يأمرنا به، والابتعاد عما نهانا عنه، هل ننتظر إحجامًا منهن أو نفورًا؟! فلتتذكر بأن الله مع الصابرين، وأن الله يحب الصابرين.

لذلك نجد أن الأمثلة كثيرة فى مجال الصبر، وهو ما يعنى أننا نحتاجه فى كل لحظة وفى كل حال، ونتيجته لا تقع فقط على من يقوم به، وإنما على كل من حوله من إنسان وحيوان وجماد

(١) البخارى فى العتق (٢٥٥٨).

ونبات، فالخير فى الصبر للجميع، كما أن نتيجته تأثيرها طويل من حيث الزمن، وقوية من حيث التأثير، فربما تذكر إحدانا فى نفسها أنها لو لم تصبر فى الماضى على فلان لكان الحال غير الحال، ولو لم تصبر على الدراسة لما كانت الآن فى هذا المكان، ولو لم تصبر على بر الوالدين فى حياتهما، لخسرت بعد موتهما الكثير، ولو لم تصبر على زميلاتها وأخواتها فى الله لوقعت فى الإثم والمعصية، ولكان حالها غير الحال، ولو لم تصبر على الألم والمرض، لكان إحساسها به أعظم وأكبر.

الدعاء لله وتقبل التوبة:

الدعاء فى أماكن لا يذكر فيها الله كثيرًا، وفى أوقات الأزمات، وبأفضل الدعاء. قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾[الأنبياء].

لقد ألهم الله تعالى سيدنا يونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الدعاء فى مكان لم يذكر فيه الله، وهو بطن الحوت، وألهمه الله دعاء لو دعا به المؤمنون فى أوقات كربهم لاستجاب الله لهم، ودعا الله تعالى فى وقت الشدة والضيق، فلم يكن فى ظلمة واحدة، وإنما كان النبى فى ظلمات ثلاث؛ ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت. فما أصعب الوقت!، وما أصعب الظروف!، وما أصعب المكان!، ولكن كل هذه الصعوبات والظلمات تحولت - بفضل قوة اليقين والإيمان - إلى مرحلة سيأتى بعدها الفرج: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٥﴾[الشَّرح].

فهذه مدرسة يونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ تعلمنا أن ندعو الله ونتقرب إليه فى أماكن لا يذكر فيها الله كثيرًا، وما أكثرها فى هذا الزمان، فربما تكون وسيلة من وسائل المواصلات، وربما تكون مكانًا من أماكن اللهو والترفيه، وربما تكون فى الأسواق والمحلات التجارية، وربما تكون فى أماكن الدراسة التى لا يذكر فيها الله كثيرًا.

فعلى الأخت المسلمة المؤمنة أن تكثر الدعاء والاستغفار فى وقت غفلة الناس عن الذكر، فربما تذكر نفسها وتذكر غيرها، فتفوز بالاستجابة للدعاء، وتسعد فى دينها ودنياها.

ولنا فى الأنبياء أسوة حسنة، وعلاج للكرب فى الوقت العصيب، ولنتذكر حديث الرسول ﷺ، الذى يحكى لنا فيه قصة لثلاثة رجال وقعوا فى أزمة، ولم يخرجهم منها إلا الدعاء والتضرع لله والتقرب إليه بالعمل الصالح.

فعن أبى عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم، حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار. فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم. قال رجل منهم: اللّٰهم كان لى أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبقُ (لا أقدم فى الشرب) قبلهما أهلًا ولا مالًا، فنأى بى طلب الشجر يومًا، فلم أرُح (أرجع) عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غَبُوقَهُمَا، فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلًا أو مالًا فلبثت - والقدح على يدى - أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر (ظهر ضوؤه) والصبية يتضاعون عند قدمى (يصيحون من الجوع)، فاستيقظا فشربا غَبُوقَهُمَا. اللّٰهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئًا لا يستطيعون الخروج منه. قال الآخر: اللّٰهم إنه كانت لى ابنةُ عم، كانت أحب الناس إلىَّ. وفى رواية: كنت أحبها كأشد ما يُحب الرجال النساء، فأردتها على نفسها (طلبت منها ما يطلب الرجل من زوجته) فامتنعت منى، حتى ألمت بها سنة من السنين (أى نزلت بها سنة من السنين المجدبة) فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار، على أن تُخَلِّى بينى وبين نفسها ففعلت، حتى إذا قدرت عليها، قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه (أى لا تزل عفافى إلا بالزواج)، فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلىَّ، وتركت الذهب الذى أعطيتُها. اللّٰهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها. وقال الثالث: اللّٰهم إنى استأجرت أُجَرَاءَ وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد، ترك الذى له وذهب، فثَّمرتُ أجره حتى كثُرت منه الأموال، فجاءنى بعد حين، فقال: يا عبد الله، أدِّ إلىَّ أجرى، فقلت: كل ما ترى من أجرِكَ: من الإبل والبقر والغنم والرقيق. فقال: يا عبد الله، لا تستهزئ بى! فقلت: لا أستهزئ بكَ، فأخذه كله فاستاقه، فلم يترك منه شيئًا. اللّٰهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة، فخرجوا يمشون»** [متفق عليه][1].

وفى هذا الحديث دروس وعبر للمؤمنين، فالدعاء عند الكرب يفرجه، والتوسل بالعمل الصالح يخفف الهم، وكذلك فضل بر الوالدين وخدمتهما، وفضل العفاف وأداء الأمانة والمحافظة على العهد والصدق، أما إخلاص العمل لله وحده، فهو أساس تقبل الله للعمل؛ فما كان لله بقى ودام، وما كان لغيره فهو أبتر.

---

(١) البخارى فى الإجارة (٢٢٧٢)، ومسلم فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٧٤٣/١٠٠).